مجلة اللغة العربية والعلوم الإسلامية المجلد (3) العدد(12)- ديسمبر 2024م
الترقيم الدولي للنسخة المطبوعة: 2812-145 x الترقيم الدولي للنسخة الإلكترونية: 2812- 5428
الموقع الإلكتروني: https://jlais.journals.ekb.eng

قصيدة (الغبطة فكرة) لإيليا أبو ماضي - دراسة بينية

د/ أماني حافظ الحفناوي
كلية اللغات والترجمة
جامعة 6 أكتوبر – جمهورية مصر العربية

Journal of Arabic Language and Islamic Science Vol (3) Issue (12)- Des2024
Printed ISSN:2812-541x On Line ISSN:2812-5428
Website: https://jlais.journals.ekb.eg/

قصيدة (الغبطة فكرة) لإيليا أبو ماضي – دراسة بينية

د/ أماني حافظ الحفناوي

كلية اللغات والترجمة

جامعة 6 أكتوبر– جمهورية مصر العربية

الملخص:

للدراسات البينية أهمية كبرى في ظل التطور المعرفي الهائل، حيث يمكن للناقد الاستفادة من اتساع المعرفة الإنسانية وتكاملها واستثمار ذلك في قراءة النص الأدبي، فالأدب ينشأ في مجتمع بما يسوده من معارف وعلوم ومعارفة إنسانية وعلاقات بين أفراده، وهذه بدوره يتبدى وينعكس في الأدب لأن الأدب يمثل نظاما اجتماعيا من أنظمة المجتمع، ولذا فقد أصبحت هذه الدراسات البينية مطلبا له وجاهته؛ للخروج من أسر التخصص الضيق، والإفادة من منجزات الحقول المعرفية الأخرى كعلوم اللغة والنفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا وغيرها من العلوم؛ سعيا وراء نظرة أوسع و ورؤية أشمل وأكثر عمقا في تحليل النص الشعري.

مشكلة البحث:

ومن هنا تشكلت مشكلة البحث في كيفية استثمار تداخل الحقول المعرفية والعلوم الإنسانية خاصة علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة مع الأدب (ممثلا في النص الشعري)، من خلال نص شعري لإيليا أبي ماضي.

أسئلة البحث:

ولذا يحاول البحث الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من أهمها:

– إلى أي مدى يتداخل الأدب مع بعض العلوم الإنسانية وبخاصة علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة؟

– كيف يمكننا خلق مجالٍ بينيٍّ من خلال رصد شبكة العلاقات والسياقات الاجتماعية في العمل الأدبي؟

– كيف أثر هذا التداخل في تلقي النص الأدبي بداية من عنوانه ومرورا بلغته وبنيته وصولا إلى جمالياته وموسيقاه؟

أهداف البحث:

وبناء على ما تقدم في مشكلة البحث وأسئلته السابقة تشكلت مجموعة من الأهداف من أهمها:

الوقوف على الحقول المعرفية المشتركة مع النقد الأدبي كعلم النفس والاجتماع والفلسفة، وعلاقة ذلك بتحليل النص الشعري، وصولا إلى بيان مدى التفاعل بين النقد الأدبي وهذه الحقول المعرفية المختلفة من خلال تطبيق ذلك على قصيدة (الغبطة فكرة) لإيليا أبي ماضي.

أهمية البحث:

وتكمن أهمية البحث في تأكيد فكرة وجود أثر فعال ناجم عن (التكامل المعرفي) من خلال تداخل الحقول المعرفية في النص الأدبي، واستثمار هذا التداخل في قراءة النص الأدبي، بما يفجر طاقاته ودلالاته وإيحاءاته الثرية، وذلك من خلال توظيف عدد من العلوم الإنسانية التي تثري النص من خلال تكامل عدد من العلوم الإنسانية تتعاضد فيما بينها لتثري القراءة ثراء واسعا، بما تفتحه من آفاق واسعة داخل بنية النص.

منهج البحث:

المنهج المعتمد في البحث هو (المنهج الوصفي التحليلي) الذي يحاول وصف الظاهرة الأدبية (النص الشعري) ومحاولة تحليله في سياقاته المتعددة والمتداخلة وخاصة السياق الاجتماعي والنفسي للوصول إلى الوعي الكامن في أعماق النص وثرائه الدلالي، وذلك من خلال دراسة تطبيقية بينية لقصيدة (الغبطة فكرة) لإيليا أبي ماضي باعتبارها نموذجا للتداخل بين هذه الحقول المعرفية.

الكلمات المفتاحية: (الدراسات البينية – الغبطة فكرة – السياق الاجتماعي والنفسي)

The Poem "Al-Ghibta Fikra" (Happiness is an idea) by Ilya Abu Madi – Interdisciplinary study

Dr. Amany Hafez Abdel Khalek El-Hefnawy
Faculty of Languages and Translation (October 6 University)

The humanities have broad areas of joint dimensions and spaces. Therefore, interdisciplinary studies are of great importance considering cognitive development to reduce the gap between their disciplines. It also serves the Arabic language as literature represents a social system. Thus, these studies have become an urgent requirement to escape from the captivity of specialization and benefit from the achievements of other cognitive fields, such as linguistics, psychology, sociology, history, geography, among others in pursuit of integrative criticism.

Problem of the study:

How cognitive fields overlap between literature (represented in the poetic text) and other humanities, especially sociology and psychology.

Questions of the study:

- To what extent does literature overlap with sociology and psychology?
- How can we create an interstitial space by observing social rituals and contexts in a literary work?
- How did the overlap affect the language, aesthetics, and music of the text?

Objectives of the study

Based on the problem and previous questions, there were several goals, the most important of which are: identifying the mutual cognitive fields of literary criticism, such as psychology and sociology, and their relationship to the analysis of the poetic text to show the extent of interaction between literary criticism and various cognitive fields.

Significance of the study:

The significance of the study lies in opening new cognitive horizons and confirming the idea of (cognitive integration)

through the overlap of the fields of knowledge to answer a knowledge problem that is difficult to answer through a single discipline or knowledge field.

Methodology

The researcher used the descriptive analytical method to describe the literary phenomenon (poetic text) and analyze it in its multiple and overlap contexts, especially the social and psychological context, to reach the awareness inherent in the depths of the text through an applied interdisciplinary study of the poem "Al-Ghibta Fikra" (Happiness is an Idea) by Ilya Abu Madi as a model for the overlap of these cognitive fields.

Keywords: interdisciplinary studies – happiness is an idea - social and psychological context

مقدمة:

يمثل الأدب نظاما اجتماعيا من أنظمة المجتمع مما يعني التداخل بينه وبين مجموعة من العلوم التي تتصل بهذا المجتمع اتصالا وثيقا، كما في التاريخ وما يتصل به من أحداث ووقائع وشخصيات، وعلم النفس بآفاقه الرحبة حول ما يدور في النفس الإنسانية أفرادا وجماعات، وعلم الاجتماع بظواهره وقضاياه التي تنبثق عن المجتمع، ولذا فقد أصبحت الدراسات البينية في مجال الأدب ضرورة حتمية خاصة مع نزوع المجتمع إلى تأكيد هويته الحضارية والثقافية.

وتختلف قراءة النص والظواهر الأدبية وفهمها وإدراك طبيعتها من قارئ إلى قارئ، فقد يأتي القارئ محملا بروافد ثقافية وأعراف أدبية؛ بل قد تختلف القراءات ولا يكون اختلافها ناتجا عن صواب قراءة أو خطأ أخرى، بل لأنه من الطبيعي أن تختلف قراءة عن أخرى باختلاف القارئ، وما يملكه من أدوات فنية، كذلك اختلاف المنهج المتبع في دراسة النص والغاية المتوخاة من القراءة.[1]

وقد أدى التداخل بين اللغة العربية وغيرها من العلوم المتخصصة في الدراسات البينية إلى ترك أثر كبير في رؤية الدارس للغة والأدب العربي؛ فظهرت مصطلحات

[1] رجاء عيد – ما وراء النص – مجلة علامات في النقد – السعودية – العدد 30 – ديسمبر 1998 – ص 180.

ومفاهيم وتحليلات، بل ونظريات جديدة ربطت بين الأدب والعلوم الإنسانية الأخرى، فقد تأثر الأدب العربي الحديث بسياقات ثقافية وروافد فلسفية كثيرة من علوم اللسانيات وعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة.

ومما سبق يتضح "أن الاتجاه النقدي الجديد بدأ يميل ناحية النقد الذي يوظف منجزات علم النفس وعلم الاجتماع واللغويات وغيرها من الحقول المعرفية للوصول إلى الوعي الكامن في أعماق النص أي أنه يركز على الأشكال الأدبية والأسلوبية والبلاغية ودورها في الكشف عن رؤية العالم فهو يصل إلى المعرفي من خلال الفني".[2] حيث إن قراءة النص تتجاوز قصدية منشئه وتستكشف أبعادا أخرى بفاعلية التأويل والتفسير المنبثقة في سياق النص، وعندما يصمت النص يشرع القارئ في تأويل ماسكت عنه النص.

ومن هنا فإن الدراسات البينية في النقد الأدبي تهتم برفع الحواجز بين التخصصات والمستويات والممارسات الإنسانية المختلفة، ويحاول الإفادة من منجزات الحقول المعرفية الأخرى. ويقتصر هذا البحث على دراسة قصيدة واحدة هي قصيدة (الغبطة فكرة) للشاعر (إيليا أبو ماضي) [3] دراسة ببينية، خاصة أنها من أجمل أشعاره

---

[2] محمد أحمد عبد الرحمن سليمان – الجانب الاجتماعي في الشعر العربي الحديث – الدوريات المصرية – المجلد 35 – 2018 – ص 4977، وللمزيد حول هذا الموضوع – مجمد محمد عليوى – فصول في نقد الرواية – دار الهاني للنشر والتوزيع – ص 66.

[3] إيليا أبو ماضي عاش ما بين عامي (1889 ـــــ 1957) شاعر عربي لبناني يعد من أهم شعراء المهجر في أوائل القرن العشرين، وأحد مؤسسي الرابطة القلمية، وأحد ملامح التجديد في الشعر العربي الحديث، تفرغ للصحافة والأدب، بدأ مسيرته الشعرية بمجموعة من القصائد المتفرقة في بعض المجلات اللبنانية في مصر، أنتج خمسة دواوين:

- تذكار الماضي (1911)
- ديوان (إيليا أبو ماضي) 1918
- ديوان (الجداول) 1927
- ديوان (الخمائل) 1940
- ديوان (تبر وتراب) 1960

وأعذبها أسلوبا وأحفلها بالعاطفة، بها تأملات وحِكم كما أنها مليئة بالشكوى والمرارة تجاه الزمان، والقصيدة مفعمة بنظرة فلسفية متفائلة في القصيدة، وهو ما يجعل لإيليا أبي ماضي خصوصية محببة وتفردا طريفا يرقيان به إلى منزلة رفيعة في الأدب العربي. وهذه الدراسة محاولة لاكتشاف طاقات النص الشعري من داخله: بنيته وتركيبه ونسيجه اللغوي من خلال إبراز أثر هذا التداخل بين الأدب ممثلا في هذه القصيدة وبين علم النفس وعلم الاجتماع، بل والفلسفة أيضا. ومن خلال هذه القصيدة يمكننا رصد علاقات التفاعل بين الأدب والمجتمع؛ حيث يسهم الجانب الاجتماعي في إنتاج الأدب وصياغة وتشكيل التصورات والمسارات التي تؤطره وتحدده ؛فالأدب نشاط اجتماعي قبل أن يكون لغويا ؛ فالمجتمع بما فيه ومن فيه يعد مصدرا ثريا يستمد منه الشاعر مادة شعره ، وكلما كان صادقا في تصوير حياة الناس بقي حيا في نفوسهم؛ ومن ثم فالقصيدة تعالج موضوعا اجتماعيا، يتصل برؤية الناس للحياة وأزماتها ومشاكلها؛ وهي تعرض لأحزان الناس وشكاواهم وكيفية معالجتهم لها، مما استدعى من الشاعر معايشة مشكلات المجتمع والتفاعل مع مختلف قضاياه عن قرب، هذا بالإضافة إلى إلقاء الضوء على نفسية المتشائم وانعكاسات ذلك على حياته وعلاقاته بمن حوله، مما يتطلب دراسة نفسية عميقة، ويعرض شاعرنا كل ذلك في إطار فلسفي تأملي يوضح رؤيته للحياة.

إن العمل الأدبي العربي ذو صلة وثيقة بالمجتمع الذي أنتجه بوصف مبدع النص واحد من هذا المجتمع الذي ينتمي إليه، وهو معبر عن هموم الجماعة ومشاكلها وقضاياها، لذا يمكن القول إن "الإنتاج الأدبي ابن بيئة محددة ذات أبعاد متنوعة ومستويات مختلفة وخصائص مركبة لا يستغني بعضها عن بعض، ولذا لا ينبغي دراسة العمل الأدبي في ضوء منهج نقدي واحد، فالنقد ذوق، والذوق فن، والفن منهج، وعليه يجب على الناقد أن يتحلى بالذائقة الأدبية التي تبحث عن التكامل

غلب على شعره طابع التفاؤل، وتميز بالمشاعر الإنسانية بجانبيها العاطفي والروحي، والقصيدة (الغبطة فكرة) من ديوان (الخمائل).

النقدي في طرحها، والاستفادة من منجزات الحقول الإنسانية والاجتماعية لأنها تنتمي جميعها إلى الثقافة".[4]

كما أن متلقي النص هو واحد من أبناء المجتمع الذي ينتمي المبدع إلى ثقافته بمفهومها الواسع، ومن ثم فهو يتلقاه مؤطرا بهذه الثقافة التي شكلت وعيه وإدراكه وشكلت ذوقه الأدبي، "حيث يعتبر الأدب في العصر الحديث أشد وقعا على الاتجاهات الثقافية والاجتماعية فهو من العلوم الفنية والجمالية التي تعبر عن حياة الإنسان، لذا جاء التعامل مع ما نتج من نتج من أدب على أنه إنتاج فني وجمالي يساعد على الانطلاق الحضاري والثقافي في الأمم والمجتمعات"[5]، ومن هنا يحاول هذا البحث اكتشاف طاقات النص الشعري من داخله ومن خلال جمالياته المتداخلة بداية من العنوان فاللغة والصور وحتى الموسيقى، وكيف توحي المجالات الإنسانية المختلفة بظلالها على هذا النص.

أولا العنوان:

هو أحد أهم مفاتيح النص الشعري التي يُستنطق من خلالها العمل الأدبي وتتحدد ماهيته...، مما يجعله يمثل نقطة انطلاق نحو النص الشعري وعالمه الخاص، فهو أول ما يواجه القارئ، وقد يكون من أكبر المحفزات على القراءة، ويعد العنوان البؤرة النصية للعمل الأدبي فهو بوابة الدخول إليه، حيث يميز العنوان عملا أدبيا عن آخر، ولا ينبثق ذلك بشكل عام من كونه عنصرا من أهم العناصر المكونة للمؤلف الأدبي فقط، بل لأنه مكون داخلي يشكل قيمة دلالية عند الدارس، فيمكن اعتبار عنوان القصيدة "ممثلا لسلطة النص، وواجهته الإعلامية التي تمارس على

---

[4]عامر رضا – النقد التكاملي وإشكالية تطبيقه على الدراسات الأدبية – مجلة أصوات الشمال – يناير 2017.

[5]بن أحمد نورين فؤاد – صناعة الأدب بين النقد الاجتماعي والنقد الثقافي – المدونة – المجلد 10 – مايو 2023 – ص222.

المتلقي إكراها أدبيا، كما أنه الجزء الأول من النص الذي يؤثر على معنى ما، فضلا عن كونه وسيلة للكشف عن طبيعة النص والمساهمة في فك غموضه".[6]

وبالنظر إلى هذا عنوان القصيدة (الغبطة فكرة) نجده يأتي في صدارة العمل، ويأخذ مكانا بارزا فيه، ويهدف به الشاعر إلى إثارة انتباه المتلقي، باعتباره علامة مصاحبة للعمل الأدبي ومؤشرا عليه.

ويتشكل عنوان القصيدة (الغبطة فكرة) من جملة اسمية بسيطة مكونة من كلمتين وتتسم بالقصر والبساطة والوضوح. وعلى الرغم من ذلك فإن العنوان يبدو ذا طابع فلسفي ونفسي بشكل واضح، وقد فاجأنا الشاعر بكلمة (الغبطة) التي تأتي في صدارة الجملة فكأنها المتكأ والمعول عليها بحكم الابتداء بها، والغبطة تعني في (سعادة سرور فرح)، (رضا تام دائم)، و(اغتبط) فرح بالنعمة، و(غبط) (غبطة) حسنت حالته، فهو مغبوط، والغبطة: "أن يتمنى المرء مثل ما للمغبوط من النعمة، من غير أن يتمنى زوالها عنه، والغبطة حسن الحال والمسرة"[7] وربما قصد الشاعر المعنيين معا، وحاول الربط بينهما في إطار فلسفي، فلن تأتي السعادة والفرح والسرور للإنسان من وجهة نظره إلا بالرضا التام الدائم بما لديه، والقناعة بما بين يديه، وتمني الخير لغيره دون حقد أو حسد، أو شعور بالنقمة على حاله، والتلفت الدائم لما لدى الآخرين من خير، ساعتها فقط ستتحسن أحواله، هنا يأتي الخبر (فكرة) ليؤكد هذه الدلالة الفلسفية النفسية العميقة، فبها يتضح أن إحساس الرضا والسعادة يكون اقتناعا نفسيا خالصا. حتى لو لم يتفق مع الواقع، فمجرد رسوخ الفكرة كفيلة أن تجعل الواقع جميلا وسعيدا على الرغم من كل الصعوبات. وهذا العنوان يردنا إلى أشهر أبيات (إيليا أبو ماضي) في قصيدته فلسفة الحياة (كن جميلا تر الوجود جميلا)، مما يؤكد أن الدعوة إلى التفاؤل فلسفة ورؤية مترسخة لديه، يحاول أن يقنع بها القارئ، ولذا يلح عليها في أكثر من قصيدة.

---

[6] شعيب حليفي – هوية العلامات وبناء التأويل – المجلس الأعلى للثقافة القاهرة – 2004 – ص 9.

[7] المعجم الوسيط والوجيز، مادة غبط.

إن الغبطة لدى إيليا أبي ماضي تتشكل وتنطلق من عقل الإنسان ووجدانه، إنها تنطلق من الداخل باتجاه الخارج، وليس مبعثها الواقع أو أي أمر آخر يحيط بالإنسان. إنه يرى الغبطة فكرة؛ وهكذا ففلسفته حول ذاته وما حوله ومن حوله تجعله ينظر للحياة من منظور أوسع وآفاق أرحب بما فيها من مباهج ومصادر سعادة مختلفة ولا يتعامل مع المواقف البسيطة بمنظور سوداوي، فيرى الحياة معتمة كالحة يائسة بائسة.

وإذا كانت "عتبة العنوان قد تفتح المجال أمام القارئ ليستشعر النص بشكل ما، بحيث تعد ملتقى علامات، وحوار خطابات حافلة بتوهج الذاكرة تتكامل بشكل كبير لتوضيح رؤية النص"[8] فإن العنوان هنا جاء متسقا مع باقي عناصر بنية القصيدة في التأكيد على هذه الفلسفة.

كما أننا نجد ثمة اتفاقا بين هذا المنظور الفلسفي والمنظور النفسي الذي يدرس الأنماط السيكولوجية داخل الأعمال الأدبية، حيث يفهم الأدب في ضوء المعرفة النفسية، "فلا شك أن أثر المنهج النفسي في النقد العربي الحديث بات واقعا لا مراد فيه غير أن هذا الأثر قد يكون خادما لنقدنا العربي وداعما له"[9] فرغم تصويره للحياة في شعره على أنها مزيج متشابك بين الخير والشر والطمأنينة والاضطراب؛ فقد ساهمت نزعة الشاعر الإنسانية المتفائلة وحبه للحياة مع النزعة التأملية في اختياره هذا العنوان، وتناغم ذلك بشكل أوضح مع المنظور الاجتماعي الذي غلب على القصيدة خاصة، وعلى شعر إيليا أبو ماضي، حيث وعى منذ طفولته أسس المجتمع اللبناني في عاداته وتقاليده الفطرية؛ ومن ثم حاول من خلال هذه القصيدة وغيرها

---

[8] سمر الديوب – النص العابر – دراسات في النقد القديم – سلسلة الدراسات النقدية – مطبعة اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ص 202.

[9] دويني دنيا وآخرون – المنهج النفسي النقد العربي الحديث – كلية الآداب – جامعة د مولاي الطاهر سعيدة – الجزائر – 2018 – ص18، وللمزيد حول المنهج النفسي – د الطاهر أحمد مكي – مناهج النقد الأدبي – مكتبة الآداب – القاهرة – 1990، سيد البحراوي – البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث – دار شرقيات – 2008.

من القصائد معالجة الأحوال المختلفة للمجتمع كالفرح والترح والأمل حيث ينطلق من فلسفة مفادها أن للأدب وظيفة عظيمة وفعالة يجب عليه أن يساهم في عملية التغير التي يسعى إليها الإنسان المعاصر نحو عالم أفضل وحياة مثلى. "وقد برز هذا النوع من الشعر لدى العديد من الشعراء وكان لأبي ماضي إسهامه الكبير في هذا المجال والسبب في ذلك يعود إلى أنه سار في شعره ضمن حدود تتبع من المجتمع"[10] كما سيتضح في هذه القصيدة.

ثانيا مطلع القصيدة (الافتتاحية): وخاتمة النص

أقبل العيد، ولكن ليس في الناس المسره

بهذه الافتتاحية القصيرة – التي تبدو بسيطة لكنها على الرغم من ذلك تبدو عميقة – استطاع إيليا الجمع بين أكثر من حقل دلالي، فمنها تتضح نزعته الفلسفية التأملية، التي تميز شعراء المهجر؛ خاصة المهجر الشمالي حيث (الرابطة القلمية) الذين كانوا أميل إلى المثالية من شعراء المهجر الجنوبي (العصبة الأندلسية) الذين عرفوا بالحماسة القومية والنزعة العربية، وربما يعود ذلك إلى الحضارة الأمريكية القائمة على العلم وإنجازاته التي بهرت الشماليين؛ فشاعت في شعرهم نزعة تأملية، نتج عنها هذه الافتتاحية الصادمة للمتلقي.

فالعيد[11] هنا يمثل طقسا من الطقوس الاجتماعية وشعيرة من الشعائر الدينية وهي بدورها جزء من التراث والأدب الشعبي، أي أن للعيد بهجته الخاصة رغم اختلاف

---

[10] موساوي سعاد (الاتجاه الاجتماعي في شعر إيليا أبو ماضي) (قصيدة الحجر الصغير) أنموذجا، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الجزائر 2012 – ص 78.

[11] والجمع (أعياد) والعيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو بعود الشهور... ومنها: أعمال تجمع بين العبادات والعادات وقد يختص ذلك بمكان بعينه وقد يكون مطلقا فكل من هذه الأمور قد يسمى عيدا "فالناس تحتفل بالعيد في مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف مظاهر الاحتفال من صلاة وتوزيع الهدايا والزيارات الأسرية" موساي سعاد، الاتجاه الاجتماعي في شعر إيليا أبي ماضي، قصيدة الحجر الصغير أنموذجا. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الجزائر، 2012م.

طقوسه الاجتماعية؛ وهكذا فإن افتتاح النص ب"أقبل العيد" يفتح أفق التوقع لدى القارئ بما وقر في نفسه وما رسخ في وجدانه وما ثبت في عقله وفكره أن العيد يأتي فتقبل الفرحة ويعم السرور، وتسود السعادة فلامجال لأحزان ولا سبيل لكآبة في العيد، فكيف يأتي هذا العيد دون بهجته وأفراحه؟؛ ولذا كان هذا الاستدراك ب(لكن) (ليس في الناس المسرة) جاءت بأسلوب حقيقي خبري لتفيد تقرير هذه الفكرة وتأكيدها رغم أنها تكسر أفق توقع القارئ؛ فالجملة الأولى (جاء العيد) جعلت أفق التوقع لدى القارئ مملوءا بالفرح والسرور، ولكن هذا الأفق سرعان ما كسره الشاعر حين فاجأ المتلقي بقوله (لكن ليس في الناس المسرة).

واللافت هنا أننا يمكننا تفسير ذلك بنظرة مجتمعية تناسب (مجتمع إيليا) – إذا جاز لنا التعبير – فليس بين الناس في لبنان (وطنه) المسرة لما يعانونه من ظروف اقتصادية وسياسية ودينية مضطربة، وحتى من استطاع منهم الهروب من هذه الظروف إلى أمريكا الشمالية (ليس فيهم أيضا المسرة) بفعل معاناتهم في التكيف مع البيئة الجديدة من جهة وإحساسهم بالحيرة والقلق والاضطراب من جهة أخرى وسط عالم ملئ بالمتناقضات بين الحق والباطل والخير والشر والحياة والموت، ويعد أبو ماضي أفضل نموذج لهذه النزعة الفلسفية التأملية والتي اتضحت في أكثر من قصيدة لديه كما في قصيدة (الطلاسم)، أما على المستوى الاجتماعي فقد اختار أبو ماضي طقسا اجتماعيا عاما تتفق كل المجتمعات الإنسانية – رغم اختلاف معتقداتها وتقاليدها – على مظاهره من فرح وسرور؛ ورغم ذلك نجد جميع هؤلاء (الناس) – وهي كلمة عامة هنا تؤكد هذه الفكرة – ليس فيهم المسرة، فكل غارق في مشكلاته وأزماته، مثقل بهمومه وأحزانه؛ ولذا يقول:

لا أرى إلا وجوها كالحات مكفهره

إننا نلمح منحى نفسيا يبدو جليا في هذا المطلع، حيث تنعكس المشكلات على نفسية الناس فتترك فيهم جرحا نفسيا حزينا وألما عميقا يشكل حاجزا بينهم وبين السعادة حتى في العيد!

ومن هنا "تمتزج المشاعر الإنسانية للشاعر بفلسفته في الكون والنفس البشرية؛ فيدرك جمال الحياة وما فيها من سعادة، ويرى أن كثيرا من الناس يعيشون في تعاسة وشقاء لأنهم لا يرون في الحياة إلا الجوانب المعتمة، ويتركون اليأس يأكل أرواحهم، وتسلب منهم البهجة؛ فيقضون حياتهم في أوهام تدعو للأسى والحسرة مما أثار حفيظته ودهشته... فيدعو الشاعر اليائسين هنا إلى البهجة والفرح؛ فالقادر على الاكتئاب لا يعدم القدرة على الابتهاج أيضا؛ ومن ثم فقد أجاد أبو ماضي مزج الفكرة بأحاسيسه وقناعاته ولمس جوانب الإقناع العقلي والوجداني في نفوسنا؛ فاكتسبت معانيه إنسانيتها التي تسافر بنا عبر الزمان والمكان".[12]

ثالثا (خاتمة القصيدة) النهاية:

خاتمة النص هي "الجزء الأخير من القصيدة وآخر ما يتبقى منها في الأسماع، فإذا كان أول الشعر مفتاحا وجب أن يكون الآخر قفلا عليه".[13]

ولأن خاتمة النص يبقى أثرها في نفس المتلقي، لكونها آخر ما تقع عليه عينه، وتترك أثرها على وجدانه وفكره لذلك "أوجب النقاد على الشاعر أن يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه: سارّا في المديح والتهاني، وحزينا في الرثاء والتعازي، وأن يكون لفظه مستعذبا وتأليفه جزلا مناسبا... وكذلك اشترطوا في الخاتمة فضلا عما سبق أن تكون أجود بيت في القصيدة، وأن تتضمن حكمة أو مثلا تشبيها حسنا أو غيرها من مستحبات الاختتام".[14]

فكما افتتح أبو ماضي قصيدته بمقدمة تشكل مفارقة قوية للمتلقي، وكاسرة توقعاته، فقد اختتمها بخاتمة متميزة تبرز جوهر النص وتجلي لبه...:

إنه العيد وإن العيد مثل العرس مره

---

[12] كندة العمروسي – (الغبطة فكرة) إيليا أبو ماضي وفلسفته في الحياة.

[13] ابن رشيق القيرواني – العمدة في صناعة الشعر ونقده ص 239 الجزء الأول.

[14] حازم القرطاجني – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – الطبعة الأولى – 1925 – مطبعة أمين هندية – ص 306 – ص 285.

حيث بدأها بكلمة "العيد" التي استخدمها في المطلع، ولكن هذه المرة دون استدراك، بل بتأكيد ماهية العيد وجوهره وتميزه عن غيره من الأيام من خلال صورة تؤكد تفرده؛ وتبرز تمايزه عن غير من الأيام، فهو مثل العرس، كلاهما يومان لا يتكرر، ومن ثمَّ لابد من الاحتفال بهما في وقتهما وإلا لن يعودا؛ فلو فاتت الفرصة فلا سبيل إلى تعويضها ولا مجال لاستعادتها، وكأنه يلحُّ على الجانب الإيجابي لأيام العيد، والدعوة إلى أن يبتعد الناس عن كل ما ينغص فرحتهم، ويسلبهم بهجتهم وسرورهم، وقد قدّم لهذه النهاية في البيت السابق:

سكن الدهر وحانت غفلة منه وغره

فهذا البيت يدل على ما يعم الكون من هدوء ويغلفه من سكون، ويوجه الشاعر من خلاله النداء الأخير للمتشائمين؛ فعليهم أن يغتنموا هذه الفرصة، ويستغلوا غفلة الدهر عنهم؛ فربما تكون هذه الفرصة الأخيرة مما جعل ذلك تمهيدا مناسبا تماما للخاتمة:

وبالتالي فرغم أنه بدأ القصيدة باستعراض حالة الناس وما هم عليه من حزن وكآبة رغم العيد قدوم، وسرده لأسباب ذلك، وعرضه لمحاولاته المستميتة لإثنائهم عن اليأس وتناسي الحزن؛ فإن وسيلة إقناعه الأخيرة بدت في هذا البيت الأخير، وكأنه الإنذار الأخير من فقدان داعٍ قوي من دواعي السعادة، فالعيد مثل العرس لن يتكرر.

رابعا اللغة:

إذا كان الشاعر الجيد هو من يستطيع التعامل مع اللغة بطريقة تفجر منها طاقاتها، وتجعل للعبارات والجمل والأنساق قوة تتعدى الدلالة المباشرة، وتنقل الأصل إلى المجاز لتفي بحاجة الفن في التعبير والتصوير وحين يحسن الشاعر توظيف اللغة فإن هناك تحولات مستمرة سوف تلحق بالدلالة ؛ فالمعنى المعجمي يتحول إلى دلالات سياقية حيث يتمكن النص في توازناته وعلاماته من أن يهيئ للكلمات ثراء وانفساحا في دلالاتها وإمكاناتها؛ و شاعرنا بوصفه أهم شعراء المهجر قد استطاع تحقيق ذلك حيث جدد شعراء المهجر في مجال اللغة العربية من خلال ميلهم إلى استخدام ألفاظ عصرهم، والتي تناسب موضوعاتهم؛ فيكون الإيحاء بدلالتها قريبا من الجمهور في

بساطة وفنية، ومن هنا فقد لجأوا إلى أسلوب تعبيري أقرب إلى اللغة الحية، أسلوب بسيط يقوم على استخدام اللفظة المألوفة غير المبتذلة، كما في قول إيليا:

ليس للقوم حديث غير شكوى مستمره

جاءت الألفاظ سهلة بسيطة بعيدة عن الإغراب اللغوي، حيث قلل شعراء المهجر من استخدام الألفاظ العربية القديمة التي تدفع المتلقي إلى استخدام المعاجم لفهمها – إلا فيما ندر– فباستثناء كلمة (المشمخرة) نجد الشاعر يعمد إلى استخدام الألفاظ السهلة؛ رغبة منه في الاقتراب من الواقع اليومي؛ ومراعاة لمستوى المتلقين في بلاد الغربة؛ حيث إن كثيرا منهم لا يمتلكون ثقافة لغوية عميقة نتيجة رحيلهم المبكر عن موطن لغتهم العربية الأم، ومن ثم استخدم بعض الشعراء أحيانا ألفاظا عامية أو أجنبية، كما في قوله:

كلهم يبكي على الأمس ويخشى شر بكره

فعلى الرغم من عمق التجربة في موضوعها وأفكارها الفلسفية نجد سهولة في الألفاظ لدرجة أنها تقترب من العامية في كلمة (بكرة) التي جاءت لمناسبة القافية الموحدة، وكذلك في كلمة (أجرة)، في قوله:

أيها العابس لن تعطى على التقطيب أجره

فالنداء هنا للمتشائمين العابسين دائما بأن يتركوا عبوسهم ويتخلوا عن تقطيبهم، فلن يكسبوا من ورائه شيئا، وقد استخدم الشاعر كلمة (أجرة) هنا بمفهومها الدارج المعروف للعامة أنها ثمن ومقابل عمل معين؛ ليوضح لهم أنه لا طائل من تشاؤمهم لعلهم يفقهون. وتتسق هذه السهولة أيضا مع شخصية الشاعر البسيطة البعيدة عن التعقيد

تبدو شخصية إيليا شديدة الوثوق على صعيد القدرية من اختيارية وجبرية في اختياره لألفاظه وتعبيراته مثل قوله:

ربما استوطنت الكوخ، وما في الكوخ كسره

وخلت منها القصور العاليات المشمخـــــــره

كما أننا نلمح أحيانا تكرارا لبعض الألفاظ كما في قوله:

وشفاها تحذر الضحك كأن الضحك جمره

حيث تكررت كلمة الضحك في البيت مرتين لما توحي به من دعوة لروح المرح والدعابة رغم حذر المتشائمين منه وكأنه جمرة من نار.

كما أن كثرة الأسئلة هنا تشف عن روح فلسفية لا تخشى طرح التساؤلات عن مغزى خلق الإنسان ووجوده وفلسفته في الحياة.

تتنافس ألفاظ التشاؤم وألفاظ التفاؤل في القصيدة؛ فبينما نجد ألفاظا مثل (الباكي، والعابس، الكالح والتقطيب، ومرا) وغيرها من الألفاظ التي توحي بالتشاؤم والاكتئاب) فإننا نجد ألفاظا أخرى توحي بالفرح والتفاؤل والاستبشار مثل (الضحك، تهلل، ترنم، العيد، العرس).

فأبو ماضي هنا بوصفه من أهم شعراء المهجر قد جدد في مجال اللغة الشعرية؛ حيث استخدم ألفاظا عصرية تمتاز بإيقاع صوتي سهل، فمع الحفاظ على أصالة اللغة ومضامينها تبقى البساطة في التعبير والرقة الغنائية عماد الشعر لديه.

كما تنوعت الأساليب في القصيدة بين الخبرية والإنشائية، فبينما ذكر مجموعة من الأساليب الخبرية لإظهار حالة التشاؤم واليأس التي يعاني منها الناس حاول بأساليبه الإنشائية استمالة المتشائمين، وحثهم على تغيير وجهة نظرهم والبعد عن مشاعر اليأس والقنوط، ويسعى دوما أن يجد متنفسا، حتى لو ضاقت منافذ الخلاص.

فجاء النداء لهم في قوله:

أيها الشاكي الليالي إنما الغبطة فكره

لبث الانتباه وقطع حبل التردد عليهم، وحول نفس المعنى نجده يردد في قصيدته الأشهر (كن جميلا)

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئا جميلا

مما يؤكد أن القصيدة تأتي ضمن سلسلة من قصائد شعر التفاؤل الذي يعد أبو ماضي رائدا له

وقد تكرر النداء بصيغة أخرى للباكي والعابس للتحذير من سيطرة النزعة التشاؤمية على الإنسان، كما تكررت أساليب الأمر والنهي للمتشائم في القصيدة فمرة ينهاه قائلا

لاتكن مرا ولا تجعل حياة الناس مره

وأخرى يأمره بقوله:

فتهلل وترنم، فالفتى العابس صخره

وكلا الأسلوبين يستخدمهما الشاعر لحث المتشائمين على البعد عن التشاؤم والدعوة إلى الاستمتاع بالحياة، وهكذا فقد تمثل الشاعر بصدق إحساس اليائسين المتشائمين وعبر عنه بدقة، وفي المقابل نجح في التعبير عن إحساس التفاؤل في ذاته، كما نجح بألفاظه وتعبيراته وأساليبه استمالة المتشائمين وإقناعهم بفلسفته الإنسانية التي تدعو إلى التفاؤل والسعادة؛ ولذا تعد اللغة الواضحة المؤثرة التي تخاطب العواطف من أهم الأساليب التعبيرية التي تستخدم في الشعر الاجتماعي؛ فجاءت القصيدة بعيدة عن السطحية والتقريرية؛ مما يدل على قدرة الشاعر على توظيف اللغة توظيفا فعالا وتطويعها في خدمة التداخل بين المجالات الدلالية مما يجعل النص مراوحة جدلية بين الدلالات والمدلولات.

إن الشاعر في توظيفه للأساليب الإنشائية يعمد إلى استخدام آليات البث الشفوي من نداء وأمر ونهي واستفهام وغيرها، وهي آليات تشعرنا بمحاولات الشاعر القوية للتأثير في متلقيه الذي يتوجه إليه بالخطاب. ويأتي النداء على رأس هذه الآليات كمان في قوله: "**أيها الشاكي الليالي**" أو النهي كما في: "**لاتكن مرا ولا تجعل حياة الناس مره**" أو الأمر كما في "**فتهلل وترنم، فالفتى العابس صخره**"، كما تتبدى محاولا التأثير في المتلقي باستخدام التعليل "**أيها الشاكي الليل؛ إنما الغبطة فكره**" وكقوله: "**فتهلل وترنم؛ فالفتى العابس صخره**"، ويلحظ هذا التوازن والتعادل فيما الأمر والنهي، وفي الجملة التعليلية الواردة في الأبيات.

خامسا: البنية:

تلعب بنية النص دورا محوريا في تماسك النص وإبراز جمالياته، ويمكن القول إن "لكل نص أدبي بنيته الخاصة التي تحقق تماسكه ضمن إطاره الكلي، وبقدر توفر الجانب الجمالي في هذه البنية يتحقق نجاحها؛ ذلك أن البنية هي النسيج الجمالي الذي تنتظم فيه مفاصل النص في مستوياتها السردية الذهنية بعلاقات تشابكية منسجمة وموائمة تركيبيا ودلاليا وتداوليا، والبنية الكبرى في النص تتصف بالكلية والشمول وبأبعاد إطارية، فهي التي تؤطر البنيات الصغرى، وتمنحها شعرية الوجود والتآزر مع غيرها داخل النسيج الكلي الذي يشبه تتابع العقد، كل حبة تسلم لأخرى حتى تكتمل في النهاية صورته".[15]

لقد بنى أبو ماضي قصيدته على طقس اجتماعي احتفالي؛ إذ إن "الاحتفال بالأعياد من القيم الثابتة للحياة الاجتماعية... فقد اعتبر علماء الفلكلور أن مقياس حضارة وهوية المجتمع بمقدار ما يوليه من اهتمام ومحافظة على عاداته وتقاليده الأصيلة؛ فالعادات والتقاليد هي حكمة الشعب؛ حيث إن للعيد نكهة خاصة يدعو الناس إلى التوقف عن العمل والقيام بأعمال غير مجدية على الصعيد المادي؛ فالعيد يدفع الناس إلى التمتع بالحياة والاحتفال بالعلاقات الاجتماعية خارج إطار العلاقات الاقتصادية؛ لذلك فالشحنة المعنوية التي يتمتع بها العيد حاجة إنسانية يشعر الناس عفويا بضرورة التمسك بها؛ ومن هنا فإن ظاهرة الاحتفال بالأعياد وتخليدها تعد محطة اجتماعية ونفسية وثقافية ضرورية".[16]

لكن (أبو ماضي) لم يستغرق في الحديث عن مظاهر الاحتفال بالعيد، وإنما استغرق في تصوير حالة البؤس التي يعاني منها الناس؛ فرغم أنه العيد، ولكنه لا يجد أي مظهر من مظاهره، ولذا فقد استمر مخاطبا هؤلاء البائسين، راسما صورة لهم من

---

[15]فرج علام – تجليات كليلة ودمنة في الأسد والغواص – مجلة كلية الآداب – جامعة بورسعيد – العدد الثامن عشر – يوليو 2021.

[16]محمد سعيدي – العائلة عاداتها وتقاليدها بين الماضي والحاضر – الظاهرة الاحتفالية بالأعياد نموذجا – المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية.

خلال قصيدته التي سعى إلى أن تحقق فيها الوحدة العضوية التي كانت من أهم سمات الاتجاه الرومانسي وخاصة عند شعراء المهجر.

حيث لم يعرف الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وإلى مطالع القرن العشرين الوحدة الموضوعية والفنية؛ فالقصيدة عنده متعددة الأغراض والأفكار غالبا، ومن أوائل من أدخلوا الوحدة على القصيدة العربية شعراء المهجر الذين نظروا إليها كعمل فني موحد متكامل الأجزاء كالبنية الحية، "ولم تكن الوحدة عندهم وحدة الموضوع فقط بل امتدت إلى الوحدة النفسية أيضا؛ فأصبح جو القصيدة جوا نفسيا واحدا لا تناقض فيه، كما أصبح الانتقال من بيت إلى آخر انتقالا طبيعيا يتسق مع الجو الشعوري للقصيدة؛ حيث يصل القارئ إلى آخر بيت فيها وقد أحس أن الشاعر أفرغ تجربته كلها في جو واحد؛ فكأن القصيدة تنحو في جزئياتها نحوا عضويا متكاملا؛ فقد حاول شعراء المهجر تحقيق الوحدة العضوية التي دعا إليها شاعرهم (ميخائيل نعيمة) في كتابه (الغربال)؛ من أجل ذلك اتجهوا في قصائدهم من رسم الصور الجزئية إلى رسم الصورة الكلية التي تصور مشهدا كاملا، أو توضح شيئا مترابطا حتى تبدو القصيدة لوحة فنية واحدة".[17]

وربما يكون أفضل نموذج لتلك الوحدة قصيدة (الغبطة فكرة) لإيليا أبي ماضي بداية من وحدة الموضوع الذي تعالجه القصيدة (الدعوة إلى التفاؤل) وكذلك وحدة الجو النفسي للمتشائمين من خلال ألفاظ مثل (الشاكي) (العابس) (التقطيب) وتعبيرات مثل (وجوه كالحات) و(الأماني المستحره) وصور مثل (كان الضحك جمرة) و (قد كساها الهم صفرة)، وترابط الأبيات وكأنها وحدة ودفقة شعورية واحدة بداية من قوله:

أقبل العيد، ولكن ليس في الناس المسره

ومرورا بتفاصيل كثيرة ومناظر طبيعية اعتمد عليها الشاعر كأدلة وجدانية على وجهة نظره، وحتى الخاتمة التي جاءت مبتكرة مكثفة اختزلت التجربة الشعرية وأبيات القصيدة كلها بحيث جمعت بين العمق والإيجاز:

---

[17] أحمد الجار الله ياسين – المدارس الشعرية وملامحها – بانوراما فنية – مجلة الرافد – الشارقة.

إنه العيد، وإن العيد مثل العرس مره

وهكذا شكلت الوحدة العضوية بناء شعريا متماسكا؛ فالقصيدة تمثل مباراة بين التفاؤل والتشاؤم.[18]

المتفائلون ويمثلهم هنا الشاعر وحده، والمتشائمون ويمثلهم الناس بشكل عام في القصيدة أو كثير منهم. والدعوة للتفاؤل دعوة للحياة الراضية الهنية التي يشوبها الرضا وتوقع الأفضل "فالتفاؤل هو نظرة استبشار نحو المستقبل تجعل الفرد يتوقع الأفضل وينتظر حدوث الخير، يرنو إلى النجاح ويستبعد ما خلا ذلك، بينما التشاؤم هو توقع سلبي للأحداث القادمة يجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ ويتوقع الشر والفشل وخيبة الأمل ويستبعد ما خلا ذلك إلى حد بعيد".[19]

حيث نلمح هذه المقارنة بين نظرة المتفائل والمتشائم من خلال قوله:

ربما استوطنت الكـــوخ وما في الكـــــــوخ كسره

وخــلت فيهـــــــــــا القصور العاليات المشمخـــــــره

تلمس الغصن المعرى فإذا في الغصن نضره

وإذا رفت على القفر استوى مـــــــــــاء وخضره

ويمكننا من خلال بنية القصيدة المحكمة أن نلمح تداخلا بين الاجتماعي والفلسفي والنفسي؛ فالقصيدة تمثل مع مجموعة أخرى من قصائد أبي ماضي اتجاها اجتماعيا إنسانيا يهتم بالمجتمع وقضاياه وهمومه ومحاولة والتأثير فيه، ويتمثل ذلك هنا في مجال (إدخال البهجة إلى النفوس) من خلال إلقاء الضوء على معنى السعادة وسبل تحققها، فالفكرة المسيطرة على الشاعر هنا هي أخذ المتعة من الحياة دون التفكير

---

[18]وجاء في لسان العرب "فالتفاؤل من الفأل وهو قول أو فعل يستبشر به وتسل الهمزة فتقال: الفال وتفاءل بالشيء تيمناً به بينما التشاؤم من باب شأم وشأم الرجل قومه أي جر عليهم الشؤم فهو شائم ومشوم ومشئوم والجمع مشائيم والشؤم الشر ضد اليمن والفأل والبركة" منظور، مادة فأل.

[19]بدر محمد الأنصاري – كتاب (التفاؤل والتشاؤم) (الفهم والقياس والمتعلقات) – مطبوعات جامعة الكويت – 1998 – ص 15.

فيها ولا في آلامها، إذ يرى أن الإنسان يمكن أن يجعل نفسه سعيدا في عالم كله شقاء، "فالغبطة فكرة".

أيها الباكي رويدا لا يسد الدمع ثغره

وهكذا تتحرك بنية النص في مدارات دائرية، تلتف حول فكرة واحدة، ومن ثم فإن الشكل الكلي بما يحتويه من التفصيلات الجزئية التي يتعاضد بعضها مع بعض في تحقيق الكلي، هو الذي يحقق قوة تعبيرية هائلة تنبعث من النص.

سادسا الجماليات:

أكد النقاد العلاقة بين الأدب وعلم النفس؛ حيث يعلق الناقد أهمية كبرى على الإفادة من نتائج علم النفس في تفسير الأدب وما ينطوي عليه من جماليات وصور؛ حيث يقف أمام الصورة التشكيلية ويفسرها موليا الرموز والتفسيرات أهمية كبيرة؛ فتدرك الصورة من خلال الرمز، أي من خلال دلالتها الرمزية الداخلية الدلالية رابطا هذا العمل بوظيفته الاجتماعية مركزا على البنية الدلالية في الوقت نفسه؛ أي أن مهمة النقد النفسي الكشف عن أسرار عملية الإبداع الفني.

ويعود الشاعر فيربط بين الاجتماعي والنفسي والفلسفي مغلفا ب إطار من الطبيعة يستقي منها صوره وأخيلته ويعبر بها عن قضيته وهمومه كما في قوله:

حائر كالطائر الخائف قد ضيع وكره

فقد استخدم هنا الطبيعة بطيورها وأعشاشها للدلالة على الحيرة والتردد التي يعاني منها هو وأمثاله من شعراء المهجر بسبب الغربة؛ ومع ذلك فقد أكسبتهم هذه الغربة تجارب حياتية متنوعة لم تتح لغيرهم من شعراء الشرق مما جعلهم يهتمون بالمضمون أكثر من الشكل؛ فتفننوا في الأغراض وطريقة التناول وترفعوا بالشعر عن التفاهات والسطحية كما يتضح من هذه القصيدة (الغبطة فكرة) وما تطرحه من فلسفة عميقة؛ كما أدي ذلك أيضا إلى التجديد في المعاني والأخيلة حيث اعتمد فيه على التراث والأمثال والحكم والأساطير ليستقي منهم رمزيته بحيث "يحاول من خلال هذه التركيبة الدرامية الربط بين العالمين: الداخلي والخارجي وتقديم التجربة الشعرية في صورة رمزية؛ فأبو ماضي كان من الشعراء الذين يعمدون إلى خلق

الأسطورة الملائمة التي يحاكي بها ما تستوعبه أمته وتحبه من أساطير؛ وهذا الاتجاه ينم عن إدراك واعٍ وفهم عميق منه لنفسية الجماعة التي يكتب لها شعره معتمدا على رموز خرافية وخيال خصب"[20] إلى حد كبير كما في قوله واصفا حالة العبوس والحزن التي يعيشها الناس رغم أننا في العيد:

فهم مثل عجوز فقدت في البحر إبره

فهذه الصورة رغم تراثيتها وما توحي به من ملامح أسطورية؛ إلا أنها مبتكرة وهكذا فإن "إيليا أبو ماضي بحق مبتكر؛ فمعظم أمثاله لها وجه من وجوه الابتكار؛ وإن لم يفطن إليها أحد من قبله؛ تماما مثل موضوعات شعره التي لم يجرؤ عليها غيره".[21]

كما أننا يمكن أن نرصد وجها آخر للتجديد في هذه القصيدة من خلال المزج بين عناصر الطبيعة ومشاعر النفس الإنسانية كما في قوله:

تلمس الغصن المعرى فإذا في الغصن نضره

فالسعادة والابتهاج في البيت لهما دورهما في تحويل الغصن اليابس إلى غصن أخضر؛ فالسعادة والبهجة هنا أمدته بإكسير الحياة. وهو يختم قصيدته بصورة جميلة تعد حكمة ختامية مركزة:

إنه العيد وإن العيد مثل العرس مره

"فتضمين الحكم في القصائد ما يزال محبوبا لدى العرب؛ فلم يستطع الهجوم الذي شنه النقاد والشعراء في الخمسينات على الحكمة في الشعر أن ينال قط من شهرة أبي ماضي لدى جمهور القراء العرب".[22]

فحكمة الحياة التي يتبناها الشاعر تتلخص في "أن المتع الحياتية التي يعيشها الناس كثيرة، وكلها تهدف إلى غاية واحدة وهي التمتع والسرور والبهجة والسعادة، فمن

---

[20] فيصل سالم العيسى – النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية – ص 166.

[21] إيليا حاوي – فن الوصف وتطوره في الشعر العربي – ط2 بيروت – دار الكتاب اللبناني – 1967 – ص17.

[22] سلمى الخضراء الجيوسي – الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث – ترجمة عبد الواحد لؤلؤة – مركز دراسات الوحدة العربية – ص181.

الميل إلى الاستهواء... إلى الحب ذروة التعاطف الإيجابي لأنه يرفع الإنسان بالشعور الوجداني من الينابيع الروحية العميقة لحياتنا الشخصية ومن أعماق اللاوعي اللاشعوري إلى حياتنا الشعورية الواعية حين يحقق التواصل بين الأنا والآخر ليكون تجربة مشتركة يتحقق عن طريقها تفتح الذات".[23]

وهكذا تتبع القصيدة من تجربة لشاعر فيلسوف يحب الطبيعة والفرح، وتمتزج مشاعره الرقيقة وصوره وأخيلته بفلسفته في الكون؛ فيدرك جمال الحياة وما فيها من فرح ومرح، ويدرك أيضا أن كثيرا من البشر يعيشون في تعاسة وشقاء؛ لأنهم لا يرون من الحياة إلا الجوانب القاتمة ويزيدون أنفسهم تعاسة عندما يطلقون العنان لليأس يأكل أرواحهم ويسلب بهجتهم؛ فيأسى الشاعر لهم ويدعوهم للتفاؤل والبعد عن الأحزان. ولم تقتصر هذه الدعوة على هذه القصيدة وحدها، بل عبر عنها في أكثر من قصيدة كما في قوله:

وإن ضاقت عليك الأرض يوما وبتَّ تئن من دنياك قهرا

فربُّ الكون ما أبكـــــــــــــــــــــــــــــــــــاك إلا لتعلمَ أن

بعد العسر يسرا

وقد حقق للتجربة الشعرية أثرها من خلال الانفعال الصادق بأبعاده الإنسانية الذي عبر عنه بنجاح بألفاظه وجمالياته، بل وموسيقاه.

سادسا الموسيقى:

اهتم شعراء المهجر بالأوزان القصيرة أو المجزوءة مما هيأ لهم الطريق إلى فن الموشح بعد ذلك؛ لما فيه من عذوبة موسيقية متنوعة وبسيطة؛ فكتبوا الموشحات على مختلف البحور، كما استخدموا نظام المربعات والمخمسات في كتابة الشعر، وكتبوا الشعر المرسل والشعر المنثور غير الموزون الذي تخصص فيه جبران خليل جبران وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة؛ حيث حاول هؤلاء الشعراء الارتفاع بالنثر العربي إلى ما وصل إليه الشعر معتمدين على العاطفة والخيال، كما في قول جبران

---

[23] أنس شكشك – فلسفة الحياة – دراسة الفكر والوجود – دار الشروق – عمان – 2009 – ص 135.

(بين منطوق لم يُقصد ومقصود لم يُنطق تضيع الكثير من المحبة) ولذا ضمَّن بعضهم مقطوعات نثرية في دواوينهم الشعرية، ولكن أبا ماضي لم ينجرف إلى هذه المغامرات الموسيقية –إذا جاز لنا التعبير– وإن كان قد نوَّع قليلا في الأوزان والقوافي.

إن الوزن والقافية في أي قصيدة يخضع إلى المعنى الذي قصد إليه الشاعر فيساهم مع الصور الفنية المختلفة في التعبير عن فكره وإحساسه، ورغم أن شعراء المهجر حاولوا التجديد خاصة في القافية سواء من خلال نظام المقطوعات أو القوافي المرسلة إلا أن أبو ماضي اعتمد في قصيدته على قافية موحدة هي (الهاء الساكنة)، وهي قافية مقصودة لتحقق ظاهرة الهمس التي ساهمت في التجديد الموسيقي عند شعراء المهجر، وقد جاءت مناسبة تماما لموضوع القصيدة، وساهمت مع وزن الرمل (المجزوء) مع بقية العناصر في إقناع المتلقي بفلسفته.

هذا بالإضافة إلى اختيار أبي ماضي للألفاظ التي تمتاز بسهولة إيقاعها الصوتي معتمدا على الموسيقى الداخلية للألفاظ كما في قوله (المسرة – زهرة – خضرة – نضرة – درة...) وهكذا فمن خلال عذوبة ورقة الإيقاع الموسيقي في القصيدة لا نفرق بين الشكل والمضمون، وبنفس الدرجة من التلازم لا نفصل المعنى عن إيقاعه وتناغمه ذلك أن موسيقى الشعر وصوره بما تحمل من فكر وفن يسيران سويا في عالم الفن.

خاتمة:

قدم البحث قراءة بينية في قصيدة (الغبطة فكرة)، ومن أبرز النقاط التي خلص إليها البحث:

- أن الدراسات البينية تسعى إلى تضييق الهوة بين المجالات والحقول المعرفية المختلفة في محاولة لإحداث نقلة مؤثرة في عالم النقد وهذا يبدو من خلال تعاضد مناهج مختلفة: المنهج النفسي والاجتماعي والفلسفي وصولا إلى المنهج الأدبي التكاملي.

- أن الأدب الملتزم يلعب دورا هاما في بناء المجتمع حيث إنه نشاط إنساني يسهم في حركة المجتمع وتقدمه، ولا يكتب للتسلية والترفيه وإنما لإبراز (رؤية) الأديب وموقفه الذي يلتزم به تجاه مجتمعه "فالفن بجوار ما له من (خاصية فنية) ومتعة جمالية هو وسيلة بناء من أجل إنسان أسعد وحياة أفضل".[24] وهذا الدور الذي يؤديه الأدب ليس على حساب القيمة الفنية.
- أن عناوين قصائده كما في هذه القصيدة (الغبطة فكرة) تنبع من مضامين اجتماعية وفلسفية ونفسية عميقة، في سياق من البساطة والوضوح؛ ومن هنا يعد أبو ماضي رائدا من رواد شعر المهجر، وهو شعر ملتزم يؤدي رسالة، يسعى إلى أن يحققها؛ فالشاعر من وجهة نظرهم فيلسوف ومصلح اجتماعي ومعالج نفسي، بل ومصور وفنان.

- الحقول المعرفية في شعر إيليا تتداخل، وخاصة قصيدة (الغبطة فكرة) التي يعرض خلالها وخلال غيرها من القصائد تجربة لشاعر فيلسوف يحب الطبيعة والحياة وتمتزج مشاعره الرقيقة بفلسفته التي تدعو إلى التمتع بالحياة والدعوة إلى التفاؤل، وبالتالي تتحقق السعادة للمجتمع؛ فالقصيدة تبرز المعاني الإنسانية الخالدة التي تأخذ صفة الاستمرارية التي لا تبلى مع مرور الزمن.
- التشكيل الجمالي بالصورة والإيقاع وظفه الشاعر في النص بكل إمكاناته الأسلوبية تعبيرا عن موقف فلسفي إنساني تبناه الشاعر في هذه القصيدة خاصة وغيرها من القصائد عامة؛ فالقصيدة عنده مجموعة من عناصر شتى يمتزج فيها النفسي بالاجتماعي بالفلسفي ليبني عالما متميزا في مضمونه، ولغته، وجمالياته، وموسيقاه.
- الشاعر أبو ماضي حرص على أن يكون نصه ذا موضوع واحد وبسيطا عميقا في فلسفته، ولذا "فشخصية أبو ماضي صافية قليلة التعقيد وشعره واضح وضوحا ساطعا في أكثره ولعله خير نموذج للإخلاص في موضوع معين في

[24] طه وادي – جماليات القصيدة المعاصرة – دار المعارف – ص21.

لحظة معينة... وسيظل أبرز مثل في الشعر العربي على التوفيق الموفق بين الفكرة الفلسفية والصورة الشعرية، ولايزال أصدق شاهد على تحقيق وحدة القصيدة، وعلى الاعتدال والتوسط بين العناصر الشرقية والمؤثرات الغربية".[25]

- شكل التفاؤل محددا مهما لبنية التشكيل الجمالي للقصيدة، خاصة وأنها حلقة في سلسلة شعر التفاؤل الذي يعد أبو ماضي رائده في الشعر العربي، كما شكل سبيلا لسبر أعماق النفس البشرية وتصوير ما يعتريها من ضيق وألم؛ فشعره شعر أفكار، ولعل استمرار شعبية أبي ماضي في الوطن العربي كون شعره نقطة التقاء بين التقليد والتجديد.
- أن إيليا تحمل عناوين قصائده مضامين اجتماعية وفلسفية ونفسية عميقة وجاءت قصيدته متسقة مع رؤيته لمجتمعه، تحمل في طياتها بعدا اجتماعيا فلسفيا نفسيا يوازي إنسانيته المشهور بها.
- جاءت لغة إيليا أبي ماضي تميل إلى البساطة والسهولة والوضوح بعيدا عن أية تعقيد أو غموض ورغم ذلك استطاعت النفاذ إلى وجدان المتلقي والتأثير فيه وخلخلة أفكاره السلبية التشاؤمية.
- وظف الشاعر آليات البث الشفوي من نداء وأمر ونهي واستفهام وغيرها من الأساليب الإنشائية بما يشعر المتلقي بمحاولات الشاعر القوية للتأثير من خلال لغة الخطاب الشعري.
- شكلت الوحدة العضوية للقصيدة بناء شعريا متماسكا صور مباراة متميزة بين التفاؤل والتشاؤم
- جاءت الموسيقا في النص ثرية متنوعة حيث تكاتفت مجزوءات الأوزان والقافية المهموسة مع التراكيب والألفاظ ذات الإيقاع الموسيقي في سرعة استجابة المتلقي للنص.

---

[25] حسان عباس – محمد يوسف نجم (الشعر العربي في المهجر – أمريكا الشمالية) – دار صادر – بيروت 1957.

وبعد فاذا كان ها البحث نموذجا لدراسة بينية فمازال هناك الكثير من المقترحات في م جال الدراسات البينية من أهمها:

– تجديد الدراسات الأدبية من خلال إدخال ثقافة البينية في النقد الأدبي المعاصر، بما يحقق فتح واستثمار المعارف والعلوم المختلفة وفتح معاني النص ودلالاته على ثراء أوسع وأرحب.

– تأسيس مركز بحثي بيني يخدم اللغة العربية وآدابها يتوافر على الإمكانات المادية والتجهيزات المناسبة للتفاعل مع ما يستجد من القضايا اللغوية من جهة أخرى كقضايا اللغة الحاسوبية، وصلة العربية بالعلوم الأخرى لتأكيد مكانة اللغة العربية بين اللغات الأخرى المعاصرة.

– اقتراح مقررات جديدة يمكن أن تدرس في أقسام اللغة العربية في الجامعات مثل (النقد البيني).

المراجع

- إبراهيم منصور تركي – من النقد الثقافي إلى النقد المعرفي – جريدة الرياض – أغسطس 2016
- ابن رشيق القيرواني – العمدة في صناعة الشعر ونقده – مطبعة أمين هنداوي – 1925 – الجزء الأول – ص239

- ابن منظور – لسان العرب – ط دار صادر – بيروت د.ت – 1985
- أحمد جار الله ياسين – المدارس الشعرية وملامحها (بانوراما فنية) – مجلة الرافد – الشارقة –2014
- إحسان عباس – ومحمد يوسف نجم – الشعر العربي في المهجر – أمريكا الشمالية – دار صادر بيروت – 1957
- الطاهر أحمد مكي – مناهج النقد الأدبي – مكتبة الآداب – القاهرة – 1990
- أنس شكشك – فلسفة الحياة –دراسة الفكر والوجود – دار الشروق – عمان – طبعة 2009
- إيليا حاوي – فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ط 2 – بيروت دار الكتاب اللبناني – 1967
- بدر محمد الأنصاري – التفاؤل والتشاؤم – الفهم والقياس والمتعلقات – مطبوعات جامعة الكويت –1998
- بن أحمد نورين فؤاد – صناعة الأدب بين النقد الاجتماعي والنقد الثقافي– دراسة في المنهج والنظرية – المدونة – المجلد 10 – العدد 1– مايو 2023 – ص222
- حازم القرطاجني – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – الطبعة الثالثة – لبنان – دار الغرب الإسلامي –1980 – ص 285 – ص306
- سلمى الخضراء الجيوسي – الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث – ترجمة عبد الواحد لؤلؤة – مركز دراسات الوحدة العربية – ص 181
- سمر الديوب – النص العابر – دراسات في النقد القديم – سلسلة الدراسات النقدية – مطبعة اتحاد الكتاب العرب – دمشق 2014
- سيد البحراوي – البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث – دار شرقيات – 2008
- شعيب حليفي – هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل – المجلس الأعلى للثقافة القاهرة – 2004

- طارق برجالة – النقد الثقافي وأنساق الغيرية – الجزائر – مجلة عود الندى – 2016
- طه وادي – القصيدة المعاصرة – دار المعارف – 1982
- فرج علام – تجليات كليلة ودمنة في الأسد والغواص – مجلة كلية الآداب – جامعة بورسعيد – العدد الثامن عشر – يوليو 2021
- فيصل سالم العيسى – النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية – دار اليازوري العلمية – 2010
- عامر رضا – النقد التكاملي وإشكالية تطبيقه على الدراسات الأدبية – مجلة أصوات الشمال – يناير 2017
- عبد للطيف شرارة – إيليا أبو ماضي دراسة تحليلية – بيروت دار بيروت للنشر والطباعة – 1982
- عبد المجيد الحر – إيليا أبو ماضي باعث الأمل ومفجر نبع التفاؤل ط1 – بيروت – دار الفكر العربي – 1995
- عيسى الناعوري – إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث – بيروت – منشورات عويات –1958
- كمال نشأت – شعر المهجر – المكتبة الثقافية – الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة – 1966
- كندة العمروسي – الغبطة فكر– إيليا أبو ماضي وفلسفة الحياة – حانة الشعراء
- محمد أحمد عبد الرحمن سليمان – الجانب الاجتماعي في الشعر العربي الحديث – شعراء الإحياء نموذجا – كلية الدراسات الإسلامية والعربية – جامعة الأزهر – الدوريات المصرية – المجلد 35 – 2018 – ص4977
- محمد عثمان (الأعياد والمناسبات في الإسلام) مجلة البيان – ج1 – 11 مارس 2011 – ص189

- محمد محمد عليوة – فصول في نظرية الأدب – دار هاني للنشر والتوزيع – ص66
- موساوي سعاد (الاتجاه الاجتماعي في شعر أبو ماضي) – قصيدة (الحجر الصغير) أنموذجا – رسالة ماجستير – كلية الآداب –جامعة الجزائر – 2012
- نادرة جميل سراج – ثلاثة رواد من المهجر – سلسلة (اقرأ) دار المعارف القاهرة 1986
- ياسين نصير – الاستهلال في البدايات في العمل الأدبي – الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر سلسلة كتابات نقدية – العدد 75 – يونيو 1998
- المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – القاهرة

الملاحق

الغبطة فكرة

أقبلَ العيدُ، ولكنْ ليسَ في الناسِ المسرَّهْ
لا أَرى إلاَّ وُجُوهاً كالحاتٍ مُكْفَهِرَّهْ
كالرَّكايا لم تَدَعْ فيها يدُ الماتِحِ قطرَهْ
أو كمثلِ الرَّوضِ لم تَتْركْ به النكباءُ زهرَهْ
وعيوناً دَنقتْ فيها الأماني المُسْتَحِرَّهْ
فَهْيَ حَيرى ذاهلاتٌ في الذي تهوى وتكرَهْ
وخدوداً باهتاتٍ قد كساها الهَمُّ صُفْرَهْ
وشفاهاً تحذرُ الضحكَ كأنَّ الضحكَ جمرَهْ
ليسَ للقومِ حديثٌ غير شكوى مستمرَّهْ
قد تساوى عندهُمْ لليأسِ نفعٌ ومضرَّهْ
لا تَسَلْ ماذا عراهُمْ كلُّهم يجهلُ أمرَهْ
حائرٌ كالطائرِ الخائفِ قد ضَيَّعَ وكرَهْ
فوقَهُ البازِيُّ، والأشْرَاكُ في نجدٍ وحُفْرَهْ
فهو إنْ حَطَّ إلى الغبراءِ شَكَّ السهمُ صدرَهْ
وإذا ما طارَ لاقى قشعمَ الجوِّ وصقرَهْ
كلُّهم يبكي على الأمسِ ويخشى شَرَّ بُكْرَهْ
فهمُ مثل عجوزٍ فقدتْ في البحرِ إبرَهْ

***

أيّها الشاكي الليالي إنَّما الغبطةُ فِكْرَهْ
ربَّما اسْتوطَنَتِ الكوخَ وما في الكوخِ كِسْرَهْ
وخَلَتْ منها القصورُ العالياتُ المُشْمَخِرَّهْ

تلمسُ الغصنَ المُعَرَّى فإذا في الغصنِ نُضْرَهْ
وإذا رفَّتْ على القَفْرِ استوى ماءً وخُضْرَهْ
وإذا مَسَّتْ حصاةً صَقَلَتْها فهيَ دُرَّهْ
لَكَ، ما دامتْ لكَ، الأرضُ وما فوق المَجَرَّهْ
فإذا ضَيَّعْتَها فالكونُ لا يَعْدِلُ ذَرَّهْ
أيُّها الباكي رويداً لا يسدُّ الدمعُ ثغرَهْ
أيُّها العابسُ لن تُعطَى على التقطيبِ أُجْرَهْ
لا تكنْ مُرَّاً، ولا تجعَلْ حياةَ الغيرِ مُرَّهْ
إنَّ من يبكي لهُ حَوْلٌ على الضحكِ وقُدْرَهْ
فتَهَلَّلْ وتَرَنَّمْ، فالفتى العابسُ صَخْرَهْ
سَكَنَ الدهرُ وحانتْ غفلةٌ منهُ وغِرَّهْ
إنّهُ العيدُ.. وإنّ العيدَ مثل العُرْسِ مَرّهْ
إيليا أبو ماضي